# ذاكرة الماء (محنة الجنون العاري) لواسيني الأعرج
# بين الاستلاب والمقاومة

**الأستاذ عبد الوهاب بوشليحة**
**جامعة الأمير عبد القادر**

الحدث في هذه الرواية لا يتم على صعيد واحد، بل على أصعدة متعددة وبشكل متزامن ومتداخل، فيشرح ويفسر بعضه البعض، وذلك عن طريق ابتكار عوالم متوازية تتجاوز وتتفاعل، فتطرح صيرورة مكتملة الجوانب للواقع بكل ما يمتلئ به من شخوص وأمكنة وموجودات.

وهذه الرواية إلى جانب كل ذلك –رواية واقعية فالواقع الاجتماعي التاريخي ماثل في أحداثها وعلاقتها الداخلية، مؤثرة في شخصيتها متفاعل معهم إلى حد التمازج، فهم جزء منه، ولكنهم ليسوا جزءا تكوينيا جامدا، بل فاعل متحرك، لهم من الطموحات والأحلام والعقد والصراعات والانكسارات والمتع وآلام وعذابات التحول ما يجعل من وجودهم طرفا محوريا في حركتهم في الواقع وجوهرا أصيلا فيها، ومن ثم تطرح الرواية على نفسها مهمة إبراز هذا الوجود، ورصد هذا الأثر الذي يتركه التحول عليهم، ولعل ذلك يتسق مع ما قاله جورج لوكاتش "مهما تنوعت معطيات الأدب فالسؤال الأساسي –وسيظل– ما هو الإنسان"[1] ولا يمكن فهم هذه العبارة إلا في ضوء مفهوم محدد للإنسان، فهو ليس منبت الصلة عن عالمه ولا معلقا في الفراغ، إنه حيوان اجتماعي حسب المفهوم الأرسطي، أي أنه عضو في جماعة إنسانية متفاعلة ومتصارعة في حدتها وتحولاتها "وبقدر تعميق تناول الإنسان ككائن اجتماعي بقدر الاقتراب من نموذج الأدب الواقعي العظيم، حيث يتطابق الوجود الفردي لأبطال هذا الأدب أو كينونتهم الأونطولوجية مع بيئتهم الاجتماعية والتاريخية، كما لا يمكن الفصل بين مغزاهم الإنساني وتفردهم الخاص الذي خلقوا فيه"[2].

---

1- جورج لوكاتش: معنى الواقعية المعاصرة. تر: أمين العيوطي. دار المعارف. القاهرة 1971. ص18.

2- جورج لوكاتش: دراسات في الواقعية الأوروبية. تر: أمين أسكندر. الهيئة العربية العامة للكتاب 1972. ص21-22.

تطرح ذاكرة الماء (لمحة الجنون العاري) قضية التحول الاجتماعي والسياسي الذي تم في الجزائر منذ بداية التسعينيات من زاوية تأثيره في مصائر المجتمع الجزائري، الذي كان يعد للتغيير على طريقته الخاصة –دون أن ينسى حقيقة التفاعل مع الآخر– فلما جاء التغيير بواسطة قوى أخرى من خارج البلاد اعتبارا لمرجعيتها الدخيلة- تحولت منذ ذلك الوقت حياة الواقع الجزائري إلى مجموعة من ردود الأفعال لما يحدث، وظلت العلاقة بين البلاد وخارجها، علاقة دفاعية محضة، في محاولة للإبقاء على ذاتيتها المتوحدة، وحماية كينونتها المتماسكة، لكن هل ستنجح البلاد في ذلك، خاصة في ظل تلاحق موجات التحول خارجها إلى حد مثير، هذا ما تجيب عنه الرواية عن طريق رصد ما تحدثه تحولات الخارج من حراك طبقي عميق في بنيتها الاجتماعية، وكذلك ما تحدثه من تأثير على أفرادها من زاوية تمايزهم الفردي الإنساني، فتتم استجابات مختلفة، بعضها طامع في تحقيق مطالب فردية، وبعضها بحدوده الأمل في أن يتحقق ما كانوا يأملون فيه جماعيا من تحول حقيقي، والأغلب محافظ متوجس من العملية برمتها في هذا الإطار يبرز البطل الذي يتحدث بلسان الراوي أحيانا وبضمير الغائب أحيانا أخرى، والذي يمثل ويلخص بسيرته الشخصية حركة المجتمع الجزائري بأكمله، ويتوحد معه، فيصبح لسانه وطليعته، ويصبح انكساره الشخصي معبرا عن انكساره الجماعي في النهاية، ولكنه رغم ذلك يبقى بطلا إيجابيا خاض تجربة كفاحية عميقة الأثر والدلالة، ولم يسلم رايات المقاومة، هكذا تتفتح أمامنا شفرات هذه الرواية حيث نستطيع أن نصوغ نموذج الاستلاب/المقاومة، كبنية مركزية تمثل النسق الروائي الذي ينتظم التحولات المجتمعية الحديثة مادية كانت أو روحية، مجسدا في النهاية كل تيار ورؤيته للعالم.

## - رمزية العنوان –ذاكرة الماء–:

في البداية يبرز العنوان –ذاكرة الماء- وهو الرمز الذي يظل يلاحق البطل عند كل أزمة كمفتاح لشفرة هذا النص ومدخل إلى عالمه. فالذاكرة هي هذا الكائن الذي يعيش الماضي و الحاضر و المستقبل "لكن شرط وجود الماضي هو خلوه من عنصري الواقع والجدة، أي من الحاضر والمستقبل، كما يعتمد الحاضر على تجرده من كل إرث ومفاجأة أي من الحاضر و المستقبل، أما المستقبل فإنه مرهون بتجرده من عاملي الحالية والتذكر أي

من الحاضر والماضي"[1]. ولو تعمقنا في طبيعة الزمن لوجدنا أنه ليس إطارا خارجيا يجري فيه عمر الإنسان، بل إنه نسيج الحياة البشرية بالذات، التي لها حدان الولادة والموت تترك وراءها ما كان وتستبق نفسها في ما سيكون، ممتدة بين بدايتها ونهايتها[2].

فالبطل مزود بحاسة الزمان، وهو الذي يضفي صفة الوجود على باقي الكائنات التي يجب أن تبني يقينها حقيقة على وعي الأنا الشخصي لذاته، الذي تشكل حالاته الشعورية المعيار، الذي تقاس عليه الأحكام والأشياء[3]. لكن البطل أيضا هو ما كان من قبل، والطريقة التي كان بها. إنه ماضيه لا ذاك الماضي الذي ينـــزلق وراءنا دون انقطاع كأحد المعطيات الموجودة بعد في الحاضر و القادرة بعد أن تحدث فيه بعض النتائج بل المتعين تبعا لطريقته الخاصة بالوجود، والتي تتحقق كل مرة انطلاقا من المستقبل وبوحي منه إن الخبرة التي اكتسبها بالأمس تحدد تصرفاته في الغد وبهذا المعنى فإن الماضي لا يمشي وراءه كالتابع بل يسبقه ويتقدمه إنه الذاكرة تفكر[4] ومن ثم يحقق لنا أن نتصور أن هذه الذاكرة إنما هي نداء الوحدة مع هذا العالم هي محالة نفي الاغتراب ذلك من خلال ما يطرحه البديل الشعوري المشع أي حين تتكاثف احتياجه وإصراره على التوحد بعالمه وقضيته على الرغم من كل الكآبة الماثلة "اسمعي يالالة مولاتي بطنك حمل ثلاث صبيات، تلاحقن الواحدة بعد الأخرى، قبل أن يكون رابعا صبيا، خامسك أبشرك، سيكون صبيا جميلا، يعشق الله والكلمات وتربة الأولياء الصالحين، سميه باسهم حتى لا يسرقوه منك مبكرا، تصدقي كثيرا وإلا سيموت بالحديد. أي حديد؟ قالت أمي، سيكين، رصاصة، سيارة، طائرة"[5] إنه إذن الوعي الكامل بعالمه الذي يحمل معه وجها واضحا، وهو كذلك الضرب على وتر مأساته الخاصة الناتجة عن تحول البلاد بعد انهيار تلاحمها وانكسار مقاومتها أمام الدخيل الذي استلبها بالكامل وفرض عليها نموذجه، فلم يجد أثناء خروجه إلى فضاء الأماكن المختلفة — الشوارع المتعددة فضاء واحدا يأويه "شيء في اللاشعور يشعرني بضرورة

1- سمير الحاج شاهين: لحظة الأبدية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1980. ص271.
2- المرجع نفسه. ص268.
3- المرجع نفسه. ص268.
4- المرجع نفسه. ص269.
5- واسيني الأعرج: ذاكرة الماء- محنة الجنون العاري. منشورات الفضاء الحر. ط1 2001. ص19.

تصفية حساباتي القديمة مع ذاكرتي مع حجم استمر معي أكثر من ثلاثين سنة"[1] إنه يردف ذلك باسترجاع مسهب لحكايته مع الوطن في حادثة وقعت له في عمر الشباب وهو ما يوحي بأن المعنى الدلالي المتولد عن رمز الذاكرة يمثل ما يشبه القدر الذي لا يمكن رده. فالأمر يبدو وكأن هذا الجيل قد كتب عليه أن يعشق هذا الوطن، وأن يكون ذلك ثمن ذلك للمفارقة هو القهر و الغربة والمعاناة "كل شيء يسقط على رأسي في مطلع السبعينيات سجنت، و لم أكن في الحقيقة أعبر إلا عن احتجاجي مع أصدقائي. كنا نعبر عن شيء غامض. نشعر بصدقه ولا نستطيع بمسه"[2] وهو ما يعني إصراره اللانهائي على القيام بدوره إلى النهاية، فيصبح ذلك مصداقا لما انتهت به الرواية. إن الرغبة الملتهبة للمعانقة و الانتماء تتجسد أمامنا عند ذكر صديقه يوسف الذي كان يقول "نحن الفقراء لا نملك الشيء الكثير سوى كتر الكلمات الذي نورثه لأصدقائنا وأحبتنا، نتذكرهم به، ويتذكروننا به، أما الحكام هؤلاء الذين يملأون الشوارع بنصبهم التذكارية والتلفزات بوجودهم سيندثرون. من يتذكر اليوم طغاة الدنيا منذ بدء الخليقة، لكن من ينسى اليوم، شكسبير، فلوبير، الحلاج، بشار بن برد سرفانتس، عمر الخيام، من يتذكر قاتل بوشكين هؤلاء هم ذاكرتنا وذاكرة الدنيا التي تعيشنا ونعيشها"[3] ولعلنا نلاحظ أن علاقة البطل بيوسف تمر بمحى معرفي متصاعد على مستوى الوعي بدلالته الرمزية، فهي تبدأ بمحاولة اقتناصه للهوية –هويته وهوية البلاد- ومن ثم فهي مرحلة أولى من الدهشة بتعبير آخر، مرحلة جديدة من الوعي والتوازي المعنوي والشعوري ثم تأتي المرحلة المجسدة للتماهي والتوحد مع صوت ربما إن البطل يجبر على الابتعاد عن عالمه، إلى أن يتقوض العالم بنجاح محاولات تدجينه وتشويه طبيعته الأصلية أي استلابه وتغييبه، مما يجعل للشوق والافتقاد حضورا أكثر نفاذية، فيصبح هو ذاته –أي البطل- الذاكرة، هكذا تتعدد وتترامى وظائف الذاكرة لتصبح مدخلا إلى العالم الروائي ورمزا كليا له، حيث تتوازى رحلة البطل مع رحلة البلاد الكسيرة مع مراحل إدراكه الشعوري الدلالي لوخز الذاكرة كعنصر محوري لنفي الاستلاب بوصفه عنصر مقاومة رئيسي.

---

1- المرجع نفسه. ص75.
2- المرجع نفسه. ص76.
3- المرجع نفسه. ص21.

## * ذاكرة الاستلاب واستيلاب الذاكرة:

يبدأ الإحساس بوطأة الاستلاب من هذا البؤس و الهوان اللذين يسيطران على عالم البلاد، والرواية منذ اللحظة الأولى، وبصورة دامغة يقول بطل الرواية "عادة لا أكتب إلا عندما تجتاحني حالة ألم شفافة، عندما غادرت بيتي للمرة الأخيرة باتجاه هذا المخبأ، لم آخذ معي شيئا مهما، سوى بعض الكتب والأشرطة ولوحة سلفادور دالي، وهذه الكومة من الأوراق التي أخاف عليها من قساوة المدينة حيث يبرز لنا وعي البطل بؤس وقساوة العالم المحيط به، فالعاصمة لدى البطل هي في الحقيقة عالم مغلق، يبدو وكأنه يسير حسب قوانينه الخاصة، ولا يعني هذا أنها مختلفة عن باقي البلاد، ولكن يعني تحديدا كثافة الإحساس بالهوان. تتزاوج هذه الوضعية المستذلة داخل البطل مع بؤس عالم العاصمة خارجه "وين عمر الدانجورو؟ عيسى لعور؟ موسى القوّال؟ جلول لحول بياع الحلوى الشباكية وابنته رقية المعسلة (...) كلهم ذاهبوا يا ريما. انقرضوا مثل النبتات النادرة.

لم يتبق إلا أصداء أماكنهم وظلالهم المنكسرة كل شيء اندثر، الدنيا لم تعد دنيا والناس لم يعودوا أناس. والسوق لم يعد سوقا. واحنا ماش احنا"[1]. فلماذا يطالع وجوه هذه الأسماء بالذات؟ أهي الرغبة غير الواعية، أو الواعية في فهم أسباب كل هذا وجذوره، أم أنه الإحساس بالضياع الذي يمكن أن يكون استمرار لحالة أعم وأشمل من الانكسار تجيب على ذلك فقرته التالية التي توضح أن بحثه كان عن أسباب انكسار الواقع الجزائري، إنه إذن التداعي الطبيعي لوضعية مغرقة في تاريخ هذا الشعب منذ الاستقلال وحتى اليوم "يا ريما هذا تاريخ منسي. اللاتسامح والخطابات الوطنية المنفوخة هي التي سحقت كل شيء، لا يمكن أن يعيش إنسان في وطن يشتم فيه يوميا وربما يقتل. الجزائر متعددة تاريخيا وأرادوها أن تكون كما توهموا. وهاهي النتيجة إذن باربارية وفاشية، لا تؤمن بشيء آخر سوى بطغيانها[2]" وهو الأمر الذي لا يجعل من مأساة العاصمة حالة خاصة بها دون باقي الوطن، كما أنها ليست حالة استثنائية أو طارئة ولكنه وضع عام وشامل .

1- المرجع نفسه. ص143.
2- المرجع نفسه. ص156.

وهكذا نجد أنفسنا أمام رؤية كابوسية للواقع تكاد تصل إلى حد العدمية لولا نوع من الإصرار والمعاندة على المقاومة وحفظ الكبرياء،؟ "علينا أن ندافع عن هذا الوطن لكن المدافع عن وطنه باستماتة كبيرة يحتاج إلى قناعة بهذا الوطن، وبمثل عال، وهذا المثل العالي علينا أن نخلقه، أن نتخيله لنستطيع الدفاع عنه وإلا سندخل حرب نحن مهزومون فيها من الداخل"[1]. إننا إزاء معسكر محدد القوى، واضح القسمات متوحد الهموم والأهداف، يقف في مواجهة معسكر غريب عن البلاد. إنه الوطن الذي يقع على أطراف متناقضة حيث يبرز التناقض في معادلة الأصيل- الدخيل. ولأن علاقة التناقض القائمة بين طرفي المعادلة أصيل –غريب (حداثي-تقليدي) تنطلق من المكان كحقل دلالي، فإن الأمكنة وما تحويه من موجودات بما فيها الإنسان، هي التي تلعب الدور الرئيسي في عملية الصراع تلك. كما أنه يؤدي إلى بروز الحركة الجماعية الكلية لطرفين يخوضان صراعا وجوديا مصيريا. ولذلك تفقد التفاصيل معناها وتبقى الدلالة الكلية لتداعيات هذا الصراع هي بيت القصيد، ولذلك تعبر الرواية عن معسكر الحداثة بـــ "حيطان هذه المدينة الشعبية العريقة التي بدأت تتهالك الواحد بعد الآخر، فكلما سقطت دار، أو بيت صغير مواجهة لرطوبة البحر، ولرياح المدن البعيدة، سقطت أجزاء كبيرة من الذاكرة"[2].

إن الرواية تنسج منظومة بالغة الأنساق لحالة الحصار تلك المفروضة على الوطن، فتبدو رمزية الحركة موحية بشمولها ولإنهائيتها.

والرواية تجسد هذه اليقظة في صورة رمزية موحية عندما توظف الممارسات التلقائية الطبيعية ليوميات العاصمة، وكأنها تتم عن عمد للقيام بأعمال المراقبة بدءا من الراوي وربما كل هذا يؤكد أننا أمام فعل مقاومة حقيقي، يقوم بدور البديل لواقع القهر القائم، ومبشرا للخلاص منه، وبالفعل تتخذ هذه المقاومة جزءا من مهامها بوفاة يوسف، وهو مكا ينبئ بانهيار وضع بكمله وبزوغ فجر عصر جديد، لقد عبرت الرواية عن هذا المضمون باستخدام الدلالة الكلية التي تشعها عبارة "الدنيا تتغير. الناس يتغيرون .ليكن

1- المرجع نفسه. ص187.
2- المرجع نفسه. ص156.

لكن لي الحق أن أكون أنا هذه الفكرة الملتهبة من الكلمات والأشواق والطفولات المستعصية"[1] للإيحاء بالحركة و الفعل والطموح.

ولعلنا نلاحظ اختفاء الحديث عن أي من شخصيات الطرف الدخيل، ولا حتى عن بطلة مكتمل الملامح والصفات، ذلك الكائن الطفيلي فكان تغييبه دلالة على عدم أصالة انتمائه إلى الصيغة التي تلخصها عبارة- لكن لي كل الحق أن أكون أنا.

إن المفارقة اللافتة للنظر تكمن في أن فوضى واضطراب البلاد لم تتم على أيدي أعدائها التقليديين –المعارضة والسلطة- بل إنهما راحا ضحية نقيض ثالث، هو التحول القادم من طرف دخيل على البلاد، الذي طرح نفسه بديلا، وقامعا لهما فالرواية ترصد بعيون تحول البلاد وكأنه قد تم استبدال رمز للقهر بآخر، تحتل الصدارة فيه صورة التيار الإسلامي ومريديه المدججون بالسلاح، وتتزايد قبضة رجاله الذين يتزلون البلاد لتأديبها بين حين وآخر. إن ازدواج الإيجابيات بالسلبيات في هذه المرحلة الجديدة والعجز عن فهمها في ظل هذا الركام من التناقضات هو المسئول عن انفراط عقد البلاد، فقد تجاوب بعضها مع الجديد، وزاد عدد الشاذين عن كتلتها المتماسكة بعد أن تميع وجود السلطة والمعارضة التقليدية، وازداد غموضا. هكذا حدث ما لم يكن ممكنا في الماضي –السبعينيات حتى منتصف الثمانينيات– وأصبحت البلاد مجرد متلق ودافع ثمن لما يحدث في الداخل و الخارج من تداعيات وتطورات مفجعة لم تساهم في اختيار أي منها.

لقد كانت انتكاسة الوطن السلطة إجهاض مشروعها الخاص في التغيير، وإدراجها ضمن مسروع قادم من خارجها –الأصوليات- تعبيرا عن استلاب من نوع جديد عبر عن نفسه في عجز النخبة عن فهم معنى أحداث كبيرة، كانوا هم ضحاياها "ربما كانت اللغة وهما. ولكن من قال أن بقية القيم التي نتوازن من خلالها ونعطي بها لحياتنا معنى من المعاني ليست وهما بدورها؟ ما معنى الحب؟ الكراهية ؟ النضال؟ الخلود؟ المقاومة؟ الكتابة؟ والعدالة؟ التي تؤكد في مغامرة الإنسان هو الموت"[2] وعلى هذا المنوال تتولى فواجعهم التي تزيد من أثرها كونهم منـــزوعي الحق في فهم أي مما يحدث "كل شيء ينهار، حتى أبسط

1- المرجع نفسه. ص285.
2- المرجع نفسه. ص92.

الخطابات صرنا نشكك فيها. مراجعنا انكسرت ضخمناها حتى صدقنا أنها كل شيء في هذه الدنيا. وها هي الدنيا تضحك علينا ماذا بقي من الاشتراكية؟ من العروبة؟ من الثورة؟ من المستقبل؟ من السعادة؟ الوطنية"[1] وتتوالى الفواجع فهناك تحولات التسعينيات التي حولت البلاد إلى دمار، منتهكة بذلك آخر ما تبقى لها من شموخ وتفرد، فيصل الاستلاب إلى أقصى مداه مجسدا مأساة البلاد المهمشة رغما عنها المتشيئة رغم إيجابياتها المفعول بها رغم توقها للفعل، هنا يبدو الطرف الدخيل وكأنه قدر كآلهة الترجيديات الإغريقية التي تحسم مصائر البشر وتحدد مسار حياتهم.

### * وعي المقاومة ومقاومة الذاكرة:

أصبحت البلاد جاهزة لاستقبال البطولات الفردية، وبالتالي أصبحت العاصمة في المقابل تفرز وعيا فرديا هو في حقيقته وعي المقاومة يعادل في عنفوانه وفاعليته هزيمة البلاد وانكسارها هناك الراوي وحكاياته التي لا تنتهي وصوت ربما الشخصية التي لا يعرف ربما أحد من أين أتت أو كم عمرها إن هذا الغموض هو غموض جيل الثمانينيات الذي فتح عيونه على المأساة وهو ما ينقل الشخصية من المجال الواقعي المحسوس إلى مجال طيفي خيالي، والرواية تبرز علاقة تربط بين الراوي وربما. ويحتمل أيضا أنها علاقة معنوية تنطلق من تعاطف الراوي مع هذا الجيل إن الراوي يمثل المقاومة الواعية التي تشكل تطورا في الوعي الجمعي للبلاد نحو صياغة بطل معاصر يفهم ويحلل ويحيك بعالم أرحب من عالم العاصمة، وإن كان كل هذا لا ينفي عنه صفة البطولة والمقاومة التي تنقله إلى مرتبة أصحاب الرسالات، مكتملا بذلك المغزى المشبع باليقين حول حتمية استمرارية الحياة وانتصارها في هذا الجزء من العالم، وسر هذه الحتمية يكمن في الامتداد العميق لجذور المقاومة المتشبثة بالحياة، بنفس عمق جذور القهر في تاريخها-الاستقلال- إن الراوي يظهر وكأنه رسول هذه البلاد إلى العالم ولسانها الفصيح المعبر، فأحاطته الأقدار برعايتها إلى أن اشتد عوده، تقدمه الرواية بأنه الولد الذي بشرت به العرافة لأمه وأنه يموت بالحديد، ولا تنسى الرواية أن تقدم لنا مراحل تكون وعيه في اتصال وثيق مع رؤيته لما يحدث في بلاده، فأهلته بذلك للقيام بدور المقاومة يدفع ثمن هذا الانتماء فيقبض عليه ويسجن وعلى الرغم من كل شيء لا يعني نهايته أو نهاية قضيته —وعليه- أنه يبقى على أمل من الانبعاث من

---

1- المرجع نفسه، ص12.

جديد، يبقى مع صوت الذاكرة، رمز الاستمرار و التواصل هكذا يتحقق النموذج الذي افترضناه في المقدمة لدراسة هذه الرواية وتحليل عناصرها، الاستلاب/المقاومة، بلاد مستلبة مقهورة تقاوم وتخطط لخلاصها على طريقتها فكانت المقاومة الجماعية عندما كان العدو واضحا محددا لا لبس فيه، ثم ظهرت البطولة الفردية عندما التبست الأمور، وفقدت إطلاقيتها فتهافت الخطى وهذه البطولة الفردية لا يتم طرحها كبديل عن الجماعة ولكنها تعبير عن جذوة المقاومة التي لا زالت متقدة بعد أن كانت لهيبا مستعرا، تعبيرا عن جذر ممتد في عمق الراوي "ينتابني شيء من التردد ضد الكثير من الأشياء الغامضة ماذا أفعل؟ هل سأبقى مرة أخرى داخل هذا القفر الذي اسمه البيت؟ أم سأخرج مسألة في غاية الحماقة هناك شيء غامض يربطني بهذه الأرض وهذا المكان المعزول ربما حفنة تراب مازلت احتفظ بها (...) أشم رائحتها وأشعر أن لي وطنا، حتى عندما يسرق مني هذا الوطن[1] وهكذا تطرح الرواية رؤيتها للعالم، رؤية رغم قتامتها وسوادويتها، ورغم ما تشي به من عمق المعاناة إلا أنها لا تؤبد هذه المعاناة ولا تجعلها قدرا لا يمكن الفكاك منه ومن ثم فهي لا تستسلم له، بل تقاتل من أجل الأفضل رغم محطات الموت المختلفة في حياة الراوي، ورغم عدم وضوح كنه هذا الأفضل على نحو محدد إلا أنه في كل الأحوال يعني –على الأقل نفي ما هو قائم من عوامل القهر والاستلاب، بل إن هذه المقاومة تبدو وكأنها هي القدر الذي لا يمكن الفكاك منه، فهو قائم وقار في بنية وجود هذه المجموعة البشرية ممثلة بذلك وعيه الفعلي، وفي حالات الانكسار تتراجع قليلا لتصبح الوعي الممكن، هكذا في تبادلية متجددة تجدد الحياة الطبيعية.

فالذاكرة هنا كإناء بلوري لا يكف عن الاحتفاظ بقطرات الماء –رمز الانبعاث والتجدد- ولا يكف عن اللمعان، إنها إذن رؤية متفائلة مؤمنة بالتحول والتجاوز، وهي لذلك رؤية واقعية تقوم على تعليل العذاب الإنساني النافذ –عذاب الراوي- وحصره في عوامل اجتماعية تاريخية محددة هي في النهاية رغم كل تعقيداتها واقع متحول يمكن تغييره مما أكسب الإصرار على المقاومة والتشبث حتى النهاية بالحلم بواقع أفضل بعدا يقينيا صوفيا إلى جانب البعد العاطفي الإنساني، لقد تعمق ذلك بفضل الاستخدام لرمز الذاكرة والاستنطاق لمكونات المكان –الشوارع- التي أضفت جوا من إمكانية التحقق حتى لو بدا مستحيلا، ومن ثم فقد قدمت الرواية شخصية بطولية وايجابية على نحو صميمي، فهي

1- المرجع نفسه. ص201.

تقاتل وتثأر، يلتقي قدرها الخارجي المتمثل في التحديات الملقاة على عاتقها مع قدر داخلي يمثله تكوينها الإيجابي العنيد وعلى الرغم من أن الواقع الخارجي يبدو صارم التوجهات والاشتراطات —الفكر الديني التيوقراطي- إلا أن الأبطال هنا— الراوي، ريما، يوسف، مريم، عمي جلول — لازالوا يحتفظون بما يسميه جورج لوكاتش الاستقلالية الذاتية، فهم يبدون كعناصر غير قابلة للتدجين أو الإخضاع، كما أن تضحياتهم ومصائرهم مع تتحدد حسب اختيار كل منهم، وليس حسب تدبير أو دفع قوى خارجية، فتقدم الشخصية الفعل وهي تعرف تبعاته ومستعدة تماما لتقبلها —موت يوسف- مثله في ذلك مثل انتيجونا أوهاميلت أو الأم لجوركي وتلك سمة البطولة —مطلقة السراح- في عصورها ما قبل الرأسمالية حيث كانت علاقة الإنسان مباشرة مع العالم الطبيعي لا تحده قوة قوانين مجتمعية على نحو محدد، ويشترك في هذه السمة الأبطال الثوريون الذين لازالوا يحتفظون بوجدان غير قابل للتطويع والإخضاع، فنوى على شاكلتهم كل أبطال المقاومة عند همنجواي، وشتاينبيك وسارتر[1].

إن البطولة الفردية هنا تنتج عن تركيبة إيديولوجية خاصة لكنها ليست غريبة عند البطولة الجماعية التي تمثل الأصل و الجذر وهو ما يقوى الدلالة الوطنية لجزائرية الراوي المشبعة باليقين والحتمية. فالشخصية البطولية لذلك ليست استثناء، كما أنها ليست حالة يومية، فهي تمتلك عالمها الداخلي الخصب وسيرتها الحياتية الخاصة غير المتقولبة على نفس القدر من الغنى والاتساق الذي تقدم به حياتها وواقعها الاجتماعي العام، ومن محصلة جدل العام الواقع الخارجي والخاص الواقع الداخلي للشخصية بأحلامها وطموحاتها وتكوينها الأيديولوجي — إنه إذن حدث الذاكرة يبدأ من نقطة محددة يمتد عبر الزمان في صيرورة صاخبة إلى وضعية أخرى جديدة تماما. فيتحقق الامتداد الزماني الذي يحدد عمر التجربة بجانبيها المتوازيين اتساع وعمق التجربة وطابعها التاريخي، مما يدع الفرصة للربط بين الحدث المحلي (الخاص) وبين الأحداث التاريخية (العامة) كما يحقق إمكانية اختبار التكوين الأيديولوجي للشخصية واستجاباتها الواعية في ضوء التحولات المتلاحقة والمصيرية التي يطرحها الواقع — الواقع الجزائري.

---

1- غالي شكري: أدب المقاومة. دار المعارف. القاهرة 1970. ص 125.